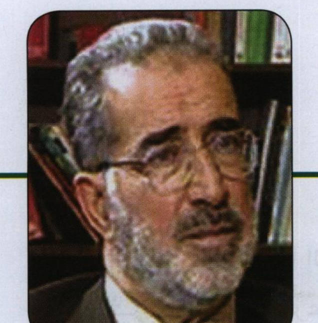
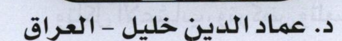


الأدب الإسلامي بين السلطتين الفقهية والإكليروسية



د. عماد الدين خليل - العراق

ليست الإكليروسية الدينية وحدها، ولكنها سلطات الفكر الموجه الواحد والنظم الشمولية التي تفرض على الأديب قيوداً باهظة تكاد تشلّه عن العمل والإبداع.

ولقد عالج الناقد الإنكليزي (روبرت كونكويست) جانباً من هذا الموضوع في كتابه المعروف (الصرخة المختنقة).

وغير (كونكويست) كثيرون ممن تناولوا المسألة كالذي نجده مثلاً في شهادات ستة من الأدباء الغربيين في (الصنم الذي هوى).

أما في الإسلام، على مستوى المعطى الفقهي أو التاريخي، فليس ثمة إكليروسية قاهرة تفرض على الأديب ما لا يطيق.

لقد ترك الباب مفتوحاً أمام الأدباء لكي يقولوا ما يشاؤون ويكتبوا ما يريدون، وليس ثمة في الساحات التي تحركوا عليها سوى إشارات حمراء محدودة جداً تقول لهم: مروا من هنا وتوقفوا هناك.. ولم تكن يوماً بمثابة القيد الذي يشل الأديب عن الإبداع، وهي - في نهاية الأمر - لصالح الأدباء أنفسهم كي لا يتوهوا ويضلوا الطريق.

وما بين النبي المعلم (صلى الله عليه وسلم) الذي تهزّه قصيدة تبدأ بالغزل، فيخلع على صاحبها (كعب بن زهير) بردته الشريفة، والفقيه الكبير (ابن حزم) وهو يكتب (طوق الحمامة في الألفة والألاف) متحدثاً عن جمرات العشق الحلال.. رحلة طويلة لم نشهد خلالها وقفة مضادة للسلطة الفقهية في وجه الأدباء.

لقد انصرف الفقهاء لفتح المنافذ والسدود أمام حاجات الناس ومصالحهم ومطالبهم اليومية، وليس إقفالها وتضييق الخناق عليهم..

صكوك الغفران والحرمان غير موجودة في تاريخنا الفقهي على الإطلاق، وهي وصمة غربية مجرم من يحاول إدانة المسلمين بعارها.

الأديب والفقيه يستمدان من نبع كتاب الله وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) واجتهادات الأجداد والآباء، وكلاهما يحرص على أن يؤدي وظيفته «الاجتهادية»، أو «الإبداعية» في ضوء تصوّرات هذا الدين ومقوّماته الأساسية. هذا يتساءل وذاك يجيب.. هذا يبدع وذاك يرشد الإبداع من أجل ألا يخرج عن جلده وبصماته الإسلامية، ومن أجل أن يمنح الأديب المزيد من المساحات التعبيرية «المشروعة» التي يمكن أن يتحرك خلالها ويغزل من خيوطها خبراته وأعماله.

لقد كان العديد من كبار الفقهاء والأصوليين، زمن تألقنا الحضاري، أدباء يشار إلى معطياتهم بالبنان. كانوا يعظون ويقّصون ويقرؤون شعراً، ويحاضرون قبالة جماهير الناس بصيغ وأساليب تسحر الأفئدة وتأسر العقول، وكانوا يكتبون ويصنفون في الأدب والجمال فيما لم يرق إلى بعض أعمالهم الأدباء أنفسهم. ولنتذكر - على سبيل المثال - الشافعي وابن حزم وابن الجوزي وابن خلدون، وعشرات غيرهم ممن أغنوا مكتبة الأدب الإسلامي بمعطياتهم المترعة صدقاً، وعذوبة، وجمالاً..

وما لنا ألا نرجع إلى النبع الذي يستمد منه كلا الطرفين رؤيته وقناعاته وقدرته على العطاء؟ أليس هو كتاب الله بأسلوبه المعجز، وبيانه المدهش، ولغته المتفردة، وجمالياته الخصبة، وعجائبه التي لا تنقضي؟

إنهما - أي الفقيه والأديب - خريجا مدرسة القرآن، وهذا - بحد ذاته - يدعوهما، بل يفرض عليهما ابتداء، الانطلاق من زاوية رؤية متوحدة، وخط بداية واحد، وأن يمنح كل منهما جهده العقلي وإبداعه بتوافق مع المقاصد الشرعية، وجعل هذه حافزاً، وليس عائقاً، لتدفق الإبداع ■